فصل من كتاب الحياة العقلية لهمرتن

الى كل سيدة راقية اوجه مقالي

ارى اكبر عامل في شقاء المرأة العصرية وتعاسة حياتها بل النقطة السوداء في كيانها ضربها بيد من حديد (عَلَى غير عادتها) فم الحقيقة . لذلك لا يجرأ الرجل الراقي في اجتماعاته مع المرأة الا ان يفوه بما يروق لاسماعها وما يعود بالمدح عليها طاوياً كشحاً عن الحقيقة . وهذا الامر صار بديهياً في الرجل اذ لا تعره المرأة اذاناً صاغية ان لم يراعِ شعورها الشخصي

اجل ان هذا مما يزيد في محاسن المجالس ولكنّ الحقيقة تتألم ابان ذلك . اعتبري هذا في رجل اختبرت رقيه الحقيقي وتاملي كيف يقف قبل الشروع في الكلام مع ذات السوار — وقفة الوجل من مغبة الحقيقة الجارحة — ليكيف الحق ويلبس رغم المعالي رداء سدونه المداهنة ولحمته الرياء فتقبل الكلام عَلَى عواهنه والرداء عَلَى علاته غير عالمة ان الحقيقة ثمن من مقاطيع الالفاظ

وبينما نرى المرء وهو بدعم ما يسرّها بالحجج القاطعة والبراهين الدامغة (رغم ارادته كيف لا واللطف مغنطيس الارادة) نراها وهي تؤثر حديث ساعة ترى في خلالها اشباح مسرتها الوهمية عَلَى كلمة حق تهتز لها اسلاك قلبها غضباً او انذار بوقعها في وهدة اليأس والوجل . وهي لو درت لاخذت الاوقات بنواصيها عاملة عَلَى تهذيب نفسها ورقي حقيقتها ما وجدت الى ذلك سبيلاً كلما سنحت لها الفرص . واذا كان هذا الامر دائم الوجود في كل المجالس المشتركة كان عَلَى الرجل صعوبة تحاكي اخطار الاسفار في مجاهل افريقية

منذ ثلاث سنين عاد طبيب ذكيّ — في احدى ولايات انكلترا — سيدة شكت نحولاً المّ بها — فاشار عليها لاول وهلة باتخاذ مزيج من الزبدة والعنبر

الملائين لذوقها عوض الدواء الحقيقي — زيت السمك — الذي كانت تمجهُ . ان هذا الامر غريب في بابه ولكن مهلاً فالمجتمعات النسائية ملأى من مثل هذه الامور فالرجل عوض ان يقدم لعشيقة الرياء افضل دواء الا وهو الحق مقوي الفضيلة ومصدرها يقدم لها زبدة التمليق المستحبة عندها . ان بقاء التباين بين الحقيقة ومراعاة احساسات المرأة — الامر الارثي الغريزي — اشبه دواماً بالتباين الشاسع بين الجنسين . ودليله ان الرجل يحجم عن ان يستعمل مع المرأة ذات الحرية التي يتخذها مع ابن جنسه . وغير خاف ان المجاباة والتغرض للمرأة في الندوات محور تدور حوله احاديثهم واعمالهم ولكني ارى كلما ارتقت المرأة الارتقاء الحقيقي كلما تحررت ارادة الرجل من قيود عبوديتها وكان له وقتئذ الحرية المطلقة ليخوض غمرات الجدال ويشهر الحق عليها . حقاً ان الرقي الحقيقي يولد الصدق والاستقامة في الاخرين وهذان الامران اولهما اعطاء الحرية وثانيهما قتل كل رياء ومداهنة سيلفيان من احاديث القوم . ماذا تقولين في رجل جمعهُ الاتفاق بامرأة فظة لئيمة . الا ياخذ منها الغضب مأخذه ان هو خاطبها بحرية لم تطرق اذنها قبلاً او ان خرج عن دائرة معرفتها القاصرة الضيقة الا يستولي عليها القلق والملل . لنفرض ان المرأة مقارنة له في التهذيب والرقي الا تتهائلين باضمحلال الافك والرياء لذلك لا اخالك الا قائلة معي بارتياح النساء الى سماع ما هو حق وصدق وقت يعم الارتقاء جميع طبقات البشر ولا شك بعد ان وصلت معي الى هذا العلو انك ادركت ضرر المرأة في هذا المركز وان خرجت نبوءتي هذه من حيز القول الى حيز العمل فطيبي نفساً وانعمي بالاً ايتها الحسناء فان للنساء وقتئذ من النجاح الباهر والنصيب الوافر

هذا ما قاله الكاتب الشهير (همرتن) في نساء عصره فما احرانا والحق يقال

نحن بهذا القول ان هذه الرسالة هي الجمال في الكمال · هي تاج على مفرق العدل والحق ومن يجرد الحق من تاجه · هي الدرة اليتيمة فقدت من مجالس الادب ومعاهده · كلام الكاتب يشف عن اخلاص نحو المرأة والانسانية · فما احرى المرأة ان تعمل به وما احق الانسانية ان تنال ضالتها المنشودة وما اجدر الرجل بالحرية المطلقة · لا تلومي الرجل على ذلك فانما ياتي ما ياتيه من التمليق والمداهنة اضطراراً لا اختياراً فيخاطبك وهو المكبل بقيود ارادتك والمسجون ضمن دائرة شعورك · فلا تنحي عليه باللائمة اذاً فنحن باللوم اجدر · انما يدور بين الرجل والمراة من المجاملات والاطراء لهو جميل في بابه لطيف في موضوعه وهو من المراة الراقية بمقام الغرض من الجوهر لكننا نحن الشرقيين نعوزنا الضروريات قبل الكماليات · يعوزنا ان نفقه حقيقة الاجتماع قبل ان نزركشها بالخز جمل التودد · ان النفس في سلم الكمال قبل ان نلبسها من المدح المكبر سربالا · وكاني ببعض القارئات غير الراقيات ينظرن الى هذا المقال شذرا بعين ازدرت بالحقيقة وجرت وراء العرض فهذا ما اتوقعه ولكن الرسالة هذه الى كل راقية من النساء وكاني بهن ينظرن اليها بعين رات الحقيقة فاتبعت اثارهـا على الرمال المحرقة وقاب راي الكمال فشغف به شغف من راى الغزالة فاستفاد من نورها وجمالها وبهاها وهذه هي الارواح الكبيرة

راشيا تمام داود

يعجبني التوحيد في ثلاثة ، الخالق والمبدأ والزوجة · وتروق لي الحرية في ثلاث ، المرأة تحت ظل زوجها والرجل تحت ظل شريعته والوطن تحت ظل الله

اسماعيل باشا صبري